معركتنا الأخيرة

سيد البحراوي

تواريخ ثلاثة راكمتْ في داخلي الإحساسَ بالعجز عن تحقيق أملنا في أوطان حرَّة مستقلَّة: هزيمة ١٩٦٧ وما تلاها حتى توقيع اتفاقية كامب دايفيد؛ وغزو بيروت عام ١٩٨٢؛ ثم حرب الخليج الثانية ١٩٩١. ورغم الإصرار على المقاومة والتماسك الشخصيّ ومواجهة كل ما هو سلبيّ وانتهازيّ ورجعيّ في حياتنا، فقد كان إحساسي الداخليّ يميل إلى أنَّ هذه المقاومة لا تهدف سوى إلى الحفاظ على السلامة الشخصيَّة، وتركِ ما نستطيع أن نتركه للأجيال التالية علَّها تستفيد به على طريقتها... مع نوع من الإحساس المؤلم بأنَّ هذه الأجيال لن تفعل شيئاً هي الأخرى لأنَّها فاقدة الانتماء إلاّ إلى أجسادها التي تؤطِّر حدود فعلها وفكرها في إطار ما يَخْدم هذه الأجساد مباشرة.

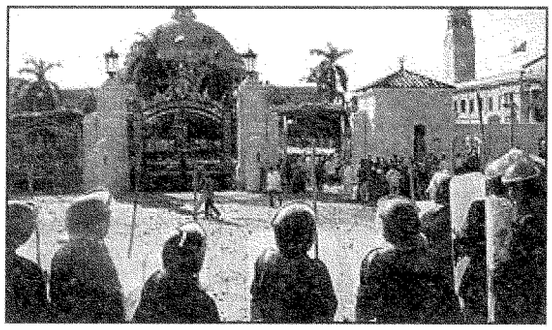

الأجيالُ... المفاجئة!

ولذلك فإنَّ عليَّ أن أعترف بأنّ الثامن والعشرين من سبتمبر عام ألفين قد حمل لي قدراً رائعاً من المفاجأة ومزيجاً فريداً من السعادة والألم في الوقت ذاته، هما السعادة والألم اللذان اكتشفتُ مع تتابع الأيام أننا سوف نعيشهما حتى ينتهي صراعُنا مع العدوّ بنهاية أحد الطرفين. لقد أدّت الانتفاضة، بتضحياتها الفادحة، وتطوُّراتها المتدرِّجة المتصاعدة المُحْكَمة، وانتصاراتها الماديَّة والمعنوية الضخمة رغم ما تبدو عليه من محدوديَّة، إلى يقظة حقيقيَّة للشعب المصريّ وللشعوب العربيَّة. ولا شكّ عندي أنَّ هذه الانتفاضة تسير في اتجاه الانتشار في مجمل هذه الشعوب، إنْ لم تكن قد بدأتْ ذلك بالفعل. ولعلي أستطيع اعتبارَ مظاهرات الأطفال في كل المدارس والشوارع المحيطة بها، وهم أطفال في سن الخامسة والسادسة يخرجون رافعين أعلامَ فلسطين التي رسموها بأقلامهم في كرّاسات الرسم، وحارقين أعلامَ إسرائيل التي رسموها بالطريقة نفسها، ورافعين شعارات التنديد باسرائيل والدعم لفلسطين والدعوة إلى الحرب من أجلها... أقول إنَّني أستطيع اعتبارَ هذه المظاهرة، مع مظاهرات طلاب الجامعات الذين مَحَت الكتبُ المدرسيَّةُ المصريَّةُ منذ ١٩٧٩ ذاكرتَهم الوطنيَّةَ ولقّنتهم أنّ إسرائيل قد أصبحت صديقاً، إنَّما هي جميعُها مؤشِّراتٌ خطيرة إلى أنَّ الإنسان ليس مجرَّد جهاز تسجيل يردِّد ما يسجَّل عليه، وأنَّ إرادة المقاومة والكرامة لا تموت داخل الإنسان مهما كُبِتَتْ، بل تظلّ كامنة تنتظر اللَّحظة المناسبة للانفجار.

وكانت المفاجأة الجميلة أنّ هذه الأجيال التي تَرَبَّتْ على ماكدونالدز والكوكاكولا والجينز قد قاطعتْ هذه البضائع وهاجمت المحلات التي تبيعها، داعيةً بقيةَ قطاعات الشعب إلى مقاطعة البضائع الإسرائيليّة والأميركيّة؛ وهذا ما ينتشر بالفعل في كافة قطاعات المجتمع المصريّ بسرعة مطّردة. وفي الوقت نفسه تنتشر في المجتمع أوراقُ حملة «المليون توقيع» الموجَّهة إلى رئيس الجمهوريّة تطالبه «بإغلاق السفارة الإسرائيليّة في مصر، وبوقفِ مختلف مظاهر تطبيع العلاقات مع دولة إسرائيل العنصريّة»؛ وتلك الموجَّهة أيضاً إلى الأمين العام للأمم المتحدة تطالبه بتشكيلِ لجنة تحقيق، وتأمينِ الحماية الدولية للفلسطينيّين، وإقرارِ حقّ العودة للاجئين. لقد انتشرتْ هذه الحملة التي نظَّمتْها «اللّجنة الشعبيّة المصريّة للتضامن مع انتفاضة الشعب الفلسطينيّ» المكوّنة من كل التيارات السياسيّة والفكريّة مع اللجان الأخرى التي تشكّلتْ في كل المحافظات تقريباً وفي بعض النقابات وبين أساتذة الجامعات وطلابها. كما أنّ هذه اللّجان والجماعات انهمكتْ في إعداد قافلة دعم ماديّ ومعنويّ ستَخْرج إلى حدود رفح يوم الأحد ٢٠٠٠/١١/٢٦*.

وفي تقديري أنّ ما يحدث في الشارع المصريّ الآن لم يحدث منذ أزمان طويلة، هي بالتحديد أزمانُ مقاومة الاحتلال الإنجليزيّ، حيث خرجتْ روحُ المقاومة من صفوف المثقفين والسياسيّين إلى القرى والحارات، وراحت تنتشر بينهم تدريجياً وعبر أشكال فرديّة أو تنظيميّة صغيرة تَهْدف إلى الإنجاز العمليّ وتَرْفض الاكتفاءَ بشعارات الشجب والإدانة والتأييد. ولا شكّ أنّ هذه الخاصيّة هي التي كانت عاملَ الضغط الأساسيّ على القوى الحاكمة كي تتّخذ القرارات العمليّة بالدعم (في مؤتمرَي القمّة العربيّة والإسلاميّة) وبسحب السفير المصريّ من تل أبيب. وهذه الخاصيّة هي التي يجب العملُ على تنميتها في كل الشعوب العربيّة، لأنّها الوسيلة الحقيقيّة لعودة هذه الشعوب إلى الحياة.

قد يعتقد البعض أنّ دور الفضائيّات العربيّة المستجدّة في نقل الأخبار والصور كان فاعلاً أساسياً في هذه الحركة الشعبيّة. وقد أوافق على هذا الرأي جزئياً، لأنّ الأساس في هذه الحركة المقاومة هو وجودُ وعي جديد تبلور خلال العقود الماضية التي انتظر فيها الناسُ قادتَهم ليحقّقوا ما وعدوا به من أحلام السلام والازدهار... قبل أن تأتي قمّة كامب ديڤيد الثانية ثم أحداث الأقصى لتعلنْ أخيراً أنّ هذه الأحلام لم تكن إلاّ وهماً كبيراً، وأنّ ما بقي من قضايا (كالقدس، واللاجئين، والمياه، والمستوطنات) ليست قضايا قابلةً للتفاوض أو التنازل من قِبل أيٍّ من الطرفَيْن المتفاوضيْن؛ فلا أحد من الفلسطينيّين أو من الإسرائيليّين يستطيع أن يتنازل طوعاً عن أيّ من هذه القضايا لأنّها تعني القضاء على المتنازِل آجلاً أو عاجلاً.

خيار واحد لا غير

وهكذا بات واضحاً أنّه لم يعد أمامنا إلاّ خيارٌ واحد هو خيار الحرب. وإذا كانت الحربُ الكلاسيكيّة غيرَ محتملة أو ربّما غيرَ ممكنة، فإنّ حرب التحرير الشعبيّة هي الحلّ. وقد كان ذلك هو الحل الذي نَجحت المقاومة اللبنانيّة وحزبُ اللّه عبره في الانتصار على إسرائيل، وأرغماها على الانسحاب الذليل من القسم الأعظم من لبنان.

لقد أَدْرك الناسُ، إذن، أنّ حلّ السلام لا أمل فيه، وأنّ هناك أملاً حقيقيّاً رأوا بعضَ نتائجه في لبنان في حرب التحرير الشعبيّة، وهي التي بدأتْ بالفعل في الأرض المحتلّة. وفي تقديري أنّ هذه الحرب لن تنتهي إلاّ بنهاية الصراع. وهي لا شكّ معركة قاسية وطويلة، وسوف يَسْتخدم فيها كلا الطرفين كلّ ما يملكانه من وسائل. وقد تبدو وسائلُ إسرائيل الحربيّة أقوى بكثير، لكنّ هذه الحرب ليست حربَ أسلحة فقط، بل هي حرب بشرٍ وزمن أيضاً؛ ومَنْ يصمد أكثر يكنْ هو الكاسب. فإسرائيل لن تستطيع أن تعيش في حالة حرب إلى مدى بعيد، كما هو معروف. ولذلك فإنّ علينا أن ندرك أنّنا نستطيع أن ننتصر، وأنّ سبيل الانتصار هو إطالةُ مدة صمودنا، وإعدادُ المحاربين في الداخل والخارج، وتوفيرُ كافة السبل لدعم هذا الصمود. وهذا يعني أنّ علينا أن نضع أنفسنا ـ أفراداً وجماعات ـ في حالة حرب حقيقيّة دائمة بكل ما يعنيه ذلك.

هذه هي معركتنا الأخيرة، ولا بدّ من خوضها بكلّ قوّة وعلى كافة المستويات... إذا كنّا نودّ ألا نكون الطرفَ الذي سيُقضى عليه!

القاهرة

* ـ تعليق الآداب: أفادت الصحف الصادرة في ٢٠٠٠/١١/٢٧ بأنّ السلطات الأمنيّة المصريّة أصرّت على الاكتفاء بتسليم المساعدات في العريش إلى مسؤول السلطة الفلسطينيّة لتلقّي الإعانات، وأرجعت الوفدَ المصريّ إلى القاهرة مانعةً إياه من التوجُّه إلى رفح. وتكتب جريدة **الحياة**: «وعُلِمَ أنّ تمسّك الجانب الأمنيّ [المصريّ] بموقفه ارتبط بمخاوف من تعمّد إسرائيل إحراجَ الحكومة المصريّة بسبب موقفها سحبَ السفير من تل أبيب، وذلك بتعمُّد إطلاق الرصاص على الوفد المصريّ على الحدود وإشعال الموقف ووضعِ الحكومة المصريّة في مأزق بالغ [!]».